حاجي بابا في انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل السابع والعشرون

أعضاء السفارة بحضرة وليمة

في اليوم التالي لافتتاح البرلمان جاء المترجم إلى السفير وقال له : «هذه خمس دعوات لتناول العشاء»

فقال السفير : الله الله ! من الذي يستطيع أن يأكل خمس مرات في ليلة واحدة ؟ »

قال المترجم : « ليس من الضروري أن تأكل بتاتاً بل تحضر الاجتماع دون أن تتناول الطعام ؛ وهذا مسموح به في عوائدنا »

قال السفير : « هبني لا آكل شيئاً ، ولكن حضور خمس دعوات يستغرق جانباً عظيماً من الليل فكيف ذلك ؟ إننا فارسيون ننام بعد صلاة العشاء ونستيقظ قبل أذان الفجر »

فقال المترجم : « ما دمت مقيماً بيننا فانك ستعتاد عاداتنا ؛ ونحن لا نكاد نفرق بين الليل وبين النهار في هذا الفصل من العام »

فقبل السفير وذهب معه ومع المترجم . وكانت الوليمة الأولى في قصر وزير ، وقد لبس السفير كعادته في الحفلات ووضع الريشة على قلبقه والخنجر في حزامه وتقلد السيف المجوهر . ولبست كذلك ما يلائم هذه الحفلة من الثياب

وصلنا إلى قصر الوزير فلم يقل لنا أحد « باسم الله ! » ولا دعانا أحد للأكل بل فتح باب ودق جرس فقام من أراد أن يقوم إلى غرفة المائدة ، وانتظر في غرفة الجلوس من أراد أن ينتظر

وكان صاحب المنزل كأنه أحد الزوار ، والزوار كأنهم في بيوتهم ، فلا خجل ولا احتشام ولا انتظار للترحيب . وكانت زوجة صاحب المنزل موجودة بيننا كأنها أحد الرجال ، وكأنه لا شأن لها بأعمال الطباخين ونظام الوليمة ! وكل الذي وجدناه من مظاهر الترحيب هو النظر إلينا والابتسام . وكان بيننا كثير من السيدات لو أن على وجه إحداهن نقاباً لتدلهت غراماً بها ، ولكن لسفورهن ما كنت أفكر في أنهن نساء

وقد بدأت المحادثة عما إذا كانت الشمس قد ظهرت في هذا اليوم أم لا ؟ وقد أجمعوا على أنها ظهرت ، واشتد الخلاف على مدة ظهورها ، فقال البعض إنها خمس دقائق وقال آخرون بل عشر

وكان المتكلم في هذا الموضوع موجهاً الالتفات إلينا لما يظنه البعض من أن الفرس يعبدون الشمس ، وسألتنا زوجة الوزير عن ذلك فأجابها السفير : « إن بلادكم ليست في حاجة إلى الشمس ما دام لنسائكم هذه الوجوه المشرقة . فلما ترجم هذا القول إلى اللغة الانكليزية قوبل بالاستحسان العام واعتبر فكاهة لطيفة

وقال الوزير : «ولكن إذا عبدتم هذه الشموس كما تعبدون الشمس في بلادكم ، فإننا سنفكر في إنشاء

مصنع للبراقع فى لانكشير ونجعل فى كل بيت قسماً للحريم

وعلى أثر ذلك تبادل الحاضرون المزاح والفكاهة فى هذا الموضوع . وقد دلنا ذلك على شىء فى الخلق الانكليزي لم نكن نتوقعه لأن هذه الشفاه المطبقة التى لا تكاد أن تفتح للكلام برهنت على أن دونها روحاً فكاهية حلوة

وقد حضرت العشاء فلم أجد متسعاً من الوقت للتفكير فيما إذا كان اللحم لحم حيوان مذبوح أو ميت، بل أكلت كل ما وقعت يدى عليه . ورأيت أمامي أنواعاً من النبيذ ما راعيت فى الامتناع عنها إلا وجود السفير

ولقد خطر لى فى أثناء الطعام أن هذا اللحم لحم خنزير . ولكن يدى لم تقف عن تناوله بل قلت باسم الله ثم التهمته

وكان السفير أكثر حذقاً مني فى استعمال الشوكة والسكين وأشد إقبالاً على تناول الطعام . ولقد أخطأت بحكم العادة مرتين فاسترعيت لسوء الحظ أنظار من حولى . أما إحدى الغلطتين فاني قاسمت جارى خبزه ؛ وأما الغلطة الثانية فانى شربت من كوبه . وكدت آخذ شيئاً من الطعام بأصابعى ولكننى تمالكت نفسى قبل الوقوع فى هذه الغلطة

ولما انتهى الأكل وقف السيدات دون الرجال وبقى هؤلاء وحدهم على المائدة ، فقلت للمترجم : إن هذا هو الشىء الوحيد الذى وجدناه قريباً من عوائدنا ولا بد أن يكون مستعاراً من الاسلام

فقال المترجم : إن النساء يقمن قبل آخر الوليمة ليكون الرجال أكثر حرية فى شرب النبيذ وفى المحادثة

وقد شجعنى التبسط فى الكلام أثناء ما جرى من الحديث على أن أتكلم باللغة الانكليزية فكان الجميع ينظرون إلىّ ويبتسمون ولا أعرف هل فهموا ما كنت أقول أم لم يفهموه

الفصل الثامن والعشرون

المحاضرة

لما انتهت الوليمة الأولى ذهبنا مع المترجم إلى قصر آخر وهو الذى فيه الحفلة الثانية ، وهى حفلة راقصة . وقد جلس السفير إلى جانب زوجة اللورد وجلس كل رجل بجانب سيدة

وسأل السفير المترجم : لماذا يجعلون حفلاتهم بالليل ؟ أليس فى النهار متسع من الوقت لذلك ؟

فقال المترجم : إن الوقت لا يتسع الآن للشرح . فسكت السفير وقد كنت وإياه فى أشد الحاجة للنوم . ولولا احترام الموقف لأدركنا النعاس ونحن جالسون

وإنى أشك كل الشك فى تصديق الناس إياى لو وصفت لهم ما رأيته فى هذه الحفلة

لقد كان النساء يتحلين من الجواهر بما لا يوجد مثله عند الشاه . وكانت أجمل فارسية تعد دميمة بالقياس إلى من رأيتهن من الحسان . ولئن كنا نصف أجياد السيدات وعيونهن بعيون الغزلان وأجيادها ، فإن هذا التشبيه يزرى بالجمال الذى رأيناه ، والذى ليس من حقه أن يشبه بشىء ما . وقلت في نفسى إذا كان فى الدنيا لذة وسرور فهما فى المرقص دون غيره . وإذا كان النساء جديرات بالحب فهن نساء هذا البلد السافرات لا نساء فارس المحتجبات

هكذا كان مجال تفكيرى . ويظهر أنه كان

مرتسما على وجهي ؛ فان أحد الجالسين حادثني باللغة الفارسية وسألني ألست أفكر في المنظر الذي أراه ؟ فقلت: «بلى، ولكني أظن أن السيدات الانكليزيات يصرن أجمل مما هن الآن إذا وضعن على وجوههن البراقع ، فلماذا لا تفرضون عليهن ذلك ؟ »

فابتسم وقال: «قد يفعلن ذلك في يوم من الأيام إذا ظهر لهن أنه يبرز جمالهن . ولكن كل إنسان في هذه البلاد حر في وجهه يفعل به ما يشاء »

قلت : « ولكن العجائز قبيحات جداً ولست أعرف السبب في ذلك . فهل عند شاهكم طريقة للتخلص منهن؟ لقد كان الشاه عباس يقتل الخصيان إذا لم يموتوا من تلقاء أنفسهم في الوقت المناسب »

فضحك محدثي وقال : « إن قتل امرأة عجوز قد يؤدي إلى نشوب ثورة ، وليس من الممكن أن أن يقوم بيننا ملك كالشاه عباس »

ثم أخذ يشرح لي بعض عادات بلاده التي لم تكن لدي فكرة عنها

وأشار إلى أحد الجالسين فقال إنه ولي العهد . وهو كسائر الموجودين يتحدث ببساطة ولا يعيره الناس التفاتاً خاصاً سوى أنهم يحرصون بقدر الامكان على ألا يوليه أحد ظهره

قلت : « ألم تقدم إليه الهدايا عند مجيئه ؟

فقال : « لا أعرف أنه أخذ شيئاً غير ما شربه من اللبن والشاى

قلت : « هذا شيء غريب ! ان الملك وأبناءه ليس لهم أقل امتياز في هذه البلاد ، ولكن في بلادنا يعد الجلوس في مكان واحد مع أحد الأمراء نعمة كبرى »

وجدت بين الجالسين رجلا يحتفى به الجميع أكثر من احتفائهم بالأمير ويظهر له الأمير نفسه أكبر احترام

قلت لمحدثي : « أليس هذا أميراً أيضاً ؟ إننا معشر الفارسيين نلتفت كل الالتفات إلى مظاهر الوجاهة فلا يفوتنا شيء منها

فقال : « لقد أصبت ! إن هذا رجل كبير الأهمية عندنا وإن لم يكن أميراً . وقد نشأ جندياً بسيطاً وارتقى بنشاطه في صفوف الجيش فهو يعد عندكم الملقبين بلقب « غازى »

قلت : « ولكنني أراه يسكب الشاى في فنجان امرأة عجوز وذلك ماليس يفعله عندنا غير الخدم . إن أحد القواد عندنا لو فعل مثل ذلك لعزله الشاه في اليوم التالى لأنه استخف بكرامة نفسه

فابتسم وقال : « دعنا من ذلك الآن وانظر إلى المحاصرة فهذا شيء جديد عليك » والمحاصرة أن يشتبك كل رجل مع سيدة بيديه وبرجليه ويدور على نغمة ما . وليس في بلادنا من يرقص غير الأجيرات . ولكن هؤلاء أعلى طبقة من الناس ولا يرقصون إلا رغبة في السرور

فلما أبديت له هذه اللاحظة قال إن المأجورات على الرقص يوجدن هنا في مسارح عامة وستراهن في يوم من الأيام

قلت : « أليس عندكم من يرى الرقص غير لائق أو يحاول إبطال هذه العادة ؟ »

فقال : « هذه عادة حديثة وقد وجدت مقاومة في بدء ظهورها . ولكن عندنا مايقال له «المودة» وهي أقوى من شاهكم ألف مرة وأكثر استبداداً . وسبب التعلق بالمودة هو أن رغبتنا في التقدم لاتجد حداً لتقف عنده

كان الراقصون إلى الآن من الشبان ولكنني رأيت فجأة ما هالني وأدهشني

فقلت لجاري : « ألا ترى ؟ هذا رئيس وزرائكم يرقص ! »

فابتسم وقال : « ماذا يهولك من ذلك ؟ إن ملكنا يرقص أيضاً وكذلك المفتي عندنا ورجال الكنيسة والحربية والبحرية والقضاة

قلت : « أقسم برأس الحسين لو أن الشاه علم أن أحد وزرائه يرقص لضربه على قدميه في الطريق العام إن لم يفعل به أكثر من ذلك »

في كل هذه المدة كان السفير غائباً عن نظري وأخيراً وجدته بين جماعة من النساء . وكان أكبر اهتمامه بواحدة منهن جالسة أمامه وهو لا يريد الانصراف عنها ولا الكف عن محادثتها . وكانت نظراته إليها كنظرات المجنون إلى ليلاه

ولما انتهت السهرة عدت مع السفير في عربة إلى دار السفارة ولم نذهب إلى سائر الولائم لأن الساعة كانت متأخرة من الليل

الفصل التاسع والعشرون

السفير يحب

لما كنا في العربة لاحظت أن السفير لا يطيق كتمان ما به من اللواعج . ولم يطل صمته حتى قال : « أقسم يا حاجي بابا أن فؤادي قد سلب ! هل رأيت مثل هذه العيون والثغور والأجياد ؟ هل رأيت شعوراً مثل هذا الشعور ؟ هل رأيت جلوداً أرق من هذه الجلود ؟ إن فؤادي يكاد يحترق ولكن ما الفائدة من هذا القول ؟ إننا فارسيون وهؤلاء النصارى لا يزوجوننا من بناتهم حتى ولو قبلنا أن نحلق لحانا وشواربنا . قل لي ما الذي أفعل ؟ تكلم يا حاجي بابا »

قلت : « ماالذي أستطيع أن أقول ؟ إنها جميلة حقاً . ولكن كيف عثرت عليها ؟ »

فقال : « إن شعورها نحوي مثل شعوري نحوها وقد نظرت إليها للمرة الأولى في مجلس النواب . ولما تبادلنا النظرات جاءت بها أمها إليّ وقد تمكن حبنا فما الذي أفعل ؟

قلت : « أرى أن تكتب إليها أبياتاً من الشعر ، فإن الحب بغير شعر أمر لن يكون »

قال السفير : « نعم ياحاجي بابا . ولقد قلت أبياتاً من الشعر منذ رأيتها ، ولكن من الذي يستطيع أن يفهم شعري الفارسي ؟ ولقد حاول المترجم أن يشرح لها ولأمها ولمن رأيتهم حولنا هذه الأبيات فبدل أن يطربوا أخذوا يضحكون . وهذا هو معنى مطلع القصيدة

« يانسيم الحب قل للمروحة التي تحركك لماذا تطردنا نحن إلى الصحاري والجبال ؟ »

قلت : « إذا كان هذا الشعر لا يملك قلبها فان قلبها يستحيل إذن أن يملك . وأرى على أية حال أن تبعث إليها بالهدايا من الشيلان والجواهر وأن تكتب إليها خطاباً بالمداد الأحمر »

فقال : « هذه بلاد شديدة الخطر على رجل مسلم . إن عيون نسائها تقتل يميناً ويساراً ولا أمل في الزواج لغير المسيحي »

ومن ذلك الوقت لم يصطحبني السفير ولم يصطحب أي رجل من أعضاء السفارة إلى الحفلات التي يحضرها سيدات من الانكليز . ولعل ذلك خوفاً من نقل أخباره إلى الشاه ، أو لعله لا يريد أن تشهد

ضحك حبيبته وأصحابها منه ، أو لعله خشى أن تزاحمه فى حبه

ومهما يكن غرضه فانه صار لا يصطحب غير المترجم. وكانا يترددان على قصر كبير يكاد يكون أكبر من قصر الشاه . وهذا القصر لإحياء الموسيقى والرقص؛ وقد ذهبت معهما مرة إليه لأنه من الأماكن العامة التى يستطيع أن يزورها كل إنسان مقابل أجر معين ؛ ويطلقون على هذا القصر اسم «الاوبرا» ؛ وتكوينه من الداخل عجيب جداً ، ففيه أماكن كخلايا النحل ضيقة يجلس فيها الوجهاء ؛ أما المكان الفسيح فى صحن البناء ففيه كراسى يجلس عليها العامة

جلسنا فى خلية من هذه الخلايا التى يختلط فيها الرجال بالنساء . وكان عدد كبير من الناس لا نرى إلا رؤوسهم، والمكان مضاء بأنوار أسطع من التى فى ممرض النور بقصر الشاه

واستقبل الكل منصة عالية كالتى يجلس عليها القضاة ويسمونها المسرح . وصدحت الموسيقى فلم تلائم أصواتها أذواقنا لأنها تخرج مئات من الأصوات المختلفة ، يختلط بعضها ببعض فيجعل اللحن شديد الاضطراب ، ولكن الانكليز يطربون له كما نطرب نحن لسماع أغانينا الشجية

وعلى حين فجأة ارتفع ستار عظيم كان يغطى هذه المنصة فرأينا من المناظر ما يعجز القلم عن وصفه

مثلت رواية محزنة كدنا نبكى عند مشاهدتها ، ثم تلاها رقص وغناء لم يعجبنا فى أول الأمر لقبح الطريقة ، ولكنه أطربنا بعد قليل لرخامة الأصوات . أما الرقص فإنه مدهش إلى غير حد ، وأقسم لو شاهده الشاه لنزل مهرولاً عن عرشه فجثا أمام هؤلاء الحور اللواتى لا يشبهن إلا حور الجنة

وقد عجزنا عن مفاخرة الانكليز فى هذا الشأن لأنه ليس لدينا موسيقيون أو ممثلون نفتخر بهم وإن كان عندنا شىء من الغناء والموسيقى . أما التمثيل فهو إبداع ليس لنا فيه أقل نصيب

وقد استمر السفير يذهب إلى هذا المكان حتى توهم بعض الانكليز أنه مسرور من كل عوائدهم

وطلبوا إليه أن يسعى فى بلاده إلى رفع الحجاب عن السيدات وتعويد النساء والرجال الفارسيين عوائد الفرنجستان . فعند ذلك غضب السفير وكف عن الذهاب إلى هذا المسرح إظهاراً لاقتناعه بفضل عاداتنا الشرقية . ولما جرى الحديث بينه وبين المترجم عن الملاهى قال المترجم إنها ضرورية لانعاش الناس وتجديد قواهم

فقال السفير : « يظهر أن الشعب الانكليزى من أبلد الشعوب لأنه محتاج دائماً إلى التنشيط والانعاش ، أما نحن فى إيران فحسبنا من ذلك النيروز وحفلة ذكرى الحسين

وحضرنا بعض حفلات التمثيل ، وبالرغم من أننا لم نفهم ما يقال على المسرح فقد كانت مجرد الرؤية كافية لافهامنا المعنى ، واقتنعنا بأن هذا هو شعب المجانين . وحمدنا الله على العقل والحكمة اللذين وهبهما للشعب الفارسى

الفصل الثلاثون

حاجى بابا يتكلم الانكليزية

بدأت أخاطب الناس باللغة الانكليزية التى كان فهمى لها أسمه منها أكبر من استعدادي للتكلم بها . ولقد وجدت كثيراً من كلامى لا يفهم بسهولة ، ووجدت ذاكرتى تخوننى فى حفظ بعض الكلمات

فانى أظن أنى نطقت بها كما سمعتها والحقيقة أنى حرفتها تحريفاً عظيما

وكذلك كان السفير يحاول الكلام باللغة الانكليزية مع حبيبته ومع الوسط الذى يلقاها فيه . وفى يوم من الأيام أقبل علىّ منزعجاً وهو يصيح : « هات القاموس : يظهر أن الذين كانوا على ظهر السفينة خدعونى فأفهمونى معنى كلمة على غير صحة . وقد نطقت بها أمام السيدات فضحكن وأخجلننى . والله لو رأيت هؤلاء البحارة لمزقت جلودهم

قلت له : « ماهى هذه الكلمة وما مناسبتها ؟ »

فقال : « لقد سألتنى الفتاة عن زوجتى فى فارس فوصفتها لها وتشجعت على الكلام باللغة الانكليزية ، فلما نطقت باحدى هذه الكلمات حلقت هى ومن حولها ثم تهامسن وتضاحكن وشعرت بالخجل لأنهن لم يطلعننى على غلطتى

وفى هذه اللحظة جاء المترجم فسردنا عليه الخبر فابتسم وقال للسفير : هذه الكلمة من أغلظ مافى لغتنا من الكلمات ، ولا بد أن تكون تسقطتها من البحارة أو السابلة . فألح السفير فى البحث عنها فى القاموس . وقد وجدها فيه ووجد لها معنى مناسباً فاطمأن وقال : يظهر أن ما يسميه المترجم (بالمودة) يعنى الكلمات عندهم أيضاً فما يجوز عندهم التكلم به اليوم لا يجوز فى الغد

وعزم على أن يكتب لتلك الفتاة فيخبرها بأنه وجد الكلمة فى القاموس

ولكن المترجم نفى ضرورة ذلك وقال : إن فطنتها ستدلها على أن السفير غير متعمد للخطأ . وإن الكتابة إليها قد تضطرها إلى الرد مع أنها تؤثر بالطبع أن تتجاهل حدوث هذه الغلطة »

قال السفير : « إذن هذه رقة فى طباعكم ! ألا تعود إلى ذكر هذه الغلطة ؟ هل قلت إنها تتجاهلها ؟ هذه هى نهاية التهذيب . إننا مهذبون فى فارس ولكننا لم نبلغ بعد هذه الدرجة »

فقال المترجم : « إن أصل معنى الكلمة عادى ، ولكن الكناية معروفة فى انكلترا كما هى معروفة عند الفارسيين ؛ وفى كل يوم تتجدد كلمات يكنى بها عن المعانى التى أصبحت كناياتها القديمة مبتذلة

قال السفير : « على ذكر الكنايات أسألك عن الكلمة التى يكنى بها عن كلمة زوجة ؟ »

فقال المترجم : « هذه كلمة لا تحتاج إلى كناية »

قال السفير : « ما أبعد الأذواق بين الأمم المختلفة ! هل يجرؤ أحدكم على سؤال الآخر عن زوجته دون أن يكنى عنها ؟ ألا تشير هذه الكلمة إلى ألف معنى من المعانى المبتذلة ؟ إننا لا نقول لأحد كيف زوجتك ولكننا نقول كيف بيتكم »

قال المترجم : « هذا الاصطلاح عندكم له ما يبرره لأنه ليس لأحدكم زوجة واحدة بل زوجات متعددات . أما نحن فما دام المرء لا يتزوج إلا من واحدة فقط فلا معنى لهذا التعبير الجامع

قال السفير : « أليس فى لغتكم تعبير يبتدىء به كل شىء مثل قولنا « باسم الله » ؟

فقال المترجم : « لا »

قال السفير : « يظهر إذن أنكم من فصيلة كردية ، فان الأكراد لا يبدأون باسم الله . ونحن فى فارس نسميهم عباد الشيطان من أجل هذا السبب

فقال المترجم : « إن الألفاظ التى يطول تكرارها تفقد وقعها . وفى اللغات ألفاظ كثيرة يجب أن تصان عن الابتذال

قال السفير : « إذن لماذا لا تصونون بعض ألفاظكم مثل كلمة « دام » التي سمعتها من كل انسان فقلتها للسيدة فضحكت مني ؟ » فلم يحر المترجم جواباً ، ولكن عند انتهاء المحادثة صمم السفير على الاتفاق مع مدرس يعلمه اللغة الانكليزية ... وكذلك صممت تنفيذاً لأمر الشاه حتى أتمكن في وقت قصير من ترجمة الكتب الانكليزية

وقد نصحنا المعلم بأن تتعلم اللغة اللاتينية أيضاً فقال السفير : « وما هي اللاتينية ؟ إنني لم أسمع قط هذا الاسم »

قال المعلم : « إن الانسان لا يعرف شيئاً عن العالم حتى يتعلم اللغة اللاتينية »

فغضب السفير وقال : « إن بلادنا من عهد جمشيد تعيش بغير اللغة اللاتينية وقد أحرقنا قبور الروس مع ذلك »

قال المعلم : « إذا كنتم تجهلون اللاتينية فانكم تعرفون الفرنسية أو الايطالية فهما لغتان شائعتان » فقال السفير إننا لا نعرف الفرنسية ولا الايطالية ، ولكن عدداً قليلاً منا يعرف التركية أو العربية ؛ فأصر المعلم النبي على ضرورة تعلم اللاتينية . ومن ذلك اليوم وضعنا له اسما لنسخر به فدعوناه لاتيناجي

الفصل السادس والثلاثون

السيدات الانكليزيات يزرن السفير

مضى علينا عدة شهور في بلاد الانكليز واعتدنا كثيراً من عوائدهم ، فكنا عندما يسير اثنان منا معاً لا يمسك أحدهما بذراع الآخر في الطريق لأن هذه العادة خاصة في انكلترا بالرجل مع المرأة . وامتنعنا عن الأكل بأصابعنا واعتدنا شرب الجعة وامتنعنا عن جلوس القرفصاء وكثير زوارنا خصوصاً من السيدات اللواتي كن يستصحبن إلينا أزواجهن وإخوتهن . وكانت الواحدة منهن تأتي وحدها في بعض الأحيان وقد توطدت الصداقة بين السفير وبين الكثيرات منهن وكثرت هداياه إليهن . ولكن حبه ظل مقتصراً على واحدة منهن هي الأولى التي تقدم ذكرها

وفي يوم من الأيام وصلت رسالة من طهران فاهتاج السفير عند قراءتها وأخذ يسب رئيس الوزارة ويلعنه ، وقال إن هذا الخطاب من زوجته وإنها علمت بأن لديه جارية شركسية وإنها تؤنبه . وقال بصوت ملؤه الرقة : « لماذا تلومني وتؤنبني ؟ إن الجارية ستكون خادماً لها عند ما نعود إلى إيران . أليس يكفيها من العناية بها والحرص على رضاها أنني لم أجمع إليها زوجة أخرى ؟ » ثم عاد الغضب فاستولى عليه وصاح : « ولكن من الذي أبلغها ؟ هل يوجد هنا من يتجسس علي ؟ » وأخذ يلعن الساعة التي عين فيها بهذا المنصب وغادر بلاده المحبوبة وزوجته وابنه

ومن بين العادات التي اعتادها السفير شراء جريدة انكليزية كل يوم لأنه كان يجد بها أخبار انتقاله وأعماله . وكان بعضها يأتي محرفاً في كثير من الأحيان فيغضب ويهتاج ويرسل تكذيباً للجريدة . وكان يقول قبل أن يفتح الجريدة : « سنرى ماذا قال عني الكذابون اليوم »

وكان يقول : « لو أن شاهنا يطلع على هذه الأخبار فانه بغير شك سيقابلني بالمقرعة والفلقة » عند ما أعود إلى طهران

وكان من بين الأخبار التي كتبتها تلك الجريدة

عنه أنه يضرب جاريته الشركسية »

وحدث فى يوم من الأيام حادث مزعج جدير بأن يكتب فى قصة ألف ليلة . وذلك أننى كنت خارجاً من باب السفارة فقابلت سيدتين إحداهما أكبر من الأخرى . وكلتاهما جميلة جداً . ولكن الصغرى أجمل . وكان شكلهما لا يدل على أنهما من الانكليزيات

تقدمت منى الكبرى وطلبت إلىّ فى جرأة مدهشة أن أصحبها إلى منزل أو منزلها لنقضى ساعة لهو . فتجاهلت الغرض وتبالهت ، ولكنها ألحّت علىّ وأكدت أنه لا خوف من ذلك . وعدت بهما إلى غرفة الجلوس فى دار السفارة وقدمت لهما الفاكهة والجعة وتسامرنا . ولكن الصغرى كانت أجمل فى عينى من الكبرى فخصصتها بعطفى ، وقد رأيت علائم الغيرة على وجه الكبرى وأنا خبير بغيرة النساء فى فارس ، ولكننى لم أر قط غيرة جنونية كغيرة هذه السيدة ، فلم أكد أقبل الفتاة التى أعجبت بها حتى انهالت علىّ الكبرى بالضرب واللكم واللكز فأعطيتها ما معى من القطع الفضية ولكن اللعينة رمت بها فكسرت المرآة . وأسرعت فخرجت من الغرفة ودخلت غرفتى الخاصة

وبعد قليل سمعت بواب السفارة يطلب المترجم ويقول له إن فى غرفة الجلوس سيدتين غريبتين إحداهما تبكى والأخرى تصيح فخرج المترجم وسمعت السيدة الكبيرة تقول له : « لا تخدعنى فانك حلقت ذقنك وجئت تتجاهلنى »

وسمعت المترجم يطردها ويتوعدها بأن يرسل فى طلب البوليس . فخرجت السيدة وعاد المترجم وسألته وأنا أتجاهل الحقيقة فأجاب بأن السيدتين من البرتغال . وأفهمنى أن الحقيقة لا تخفى عليه

ولما جاء السفير قال له المترجم ونحن موجودون إن لوندرا ليست مثل طهران ، فكل شخص فى طهران معروف إلى حد ما . أما فى لوندرا فالناس كثيرون وفيهم من يحصل على القوت بطريق غير شريفة وإنه لذلك ينصح لكل من فى السفارة ألاّ يسمحوا بدخول أحد إليها إلا إذا قدمه المترجم

الفصل الثانى والثلاثون

أكاذيب الانكليز

نسيت هذه الحادثة سريعاً وكان كل يوم يمر يزيد السفير انصرافاً عن السفارة ومن فيها إلى مماشرة الانكليزيات والانكليز . وقد كنا نعتقد أننا معشر الفارسيين أقدر الناس على الكذب . ولكن إقامتنا فى لوندرا دلتنا على أن الانكليز هم أكذب الناس حقاً . فمن أمثلة كذبهم أن أحد تجار العربات أهدى إلى سفيرنا سوطاً جميلا فقبله منه . وفى اليوم التالى وجدناه قد كتب على بابه وفى الصحف أيضاً أنه « متعهد لتوريد العربات إلى شاه إيران » وكنت مرة أمشى فى الطريق مع محمد بك فمررنا بتاجر دعانا وقدم إلينا جوارب ومناديل فلم نقبلها ولكنه ألح وأكرهنا على أخذها فأخذناها . ولما مررنا بحانوته بعد ذلك رأيناه قد كتب أنه متعهد التوريد للسفارة الفارسية فعرفنا أننا لسنا وحدنا القادرين على الضحك على الذقون

وأرسل أحد المسارح دعوة إلى السفير ليحضر حفلة تمثيلية . فلما لم يردها وجدنا إعلانات كبيرة فى الشوارع مكتوباً عليها بالخط العريض أن السفير الفارسى هو الذى اقترح تمثيل الرواية وأنه سيحضرها

وفى الليلة المحددة لتمثيل هذه الرواية أرسلنى السفير مندوباً عنه فى حضورها ، وقد تصادف أن المقصورة التى جلست بها تجاور مقصورة أخرى بها ثلاث فتيات وأمهن وأبوهن

وكان هذا الأب مفرطاً فى السمن وزوجته نحيلة جداً . أما الفتيات فانهن زاهرت يانعات من زهر الجمال

وتصادف أن يدى لمست عن غير قصد منى يد إحدى الفتيات فكان ذلك داعياً للالتفات إلى والرغبة الشديدة فى التعرف على

قالت الأم لها : « قدمي إليه برتقالة » فخجلت الفتاة وهى صغراهن وقدمت إلى برتقالة على استحياء . فقلت فى نفسى هذه تحية فارسية وقبلتها منها مع الشكر ، وشكرنى الأب على قبولها وعدَّ ذلك منى ملاطفة وقال وهو يحسبنى السفير : إنه يتمنى توثيق العلائق بين انكلترا وبين إيران

فتظاهرت بأبهة السفراء وأجبته جواباً ملائماً . وقد اتضح لى أن الرجل مشهور بوطنيته بين الانكليز . ثم سألنى هل فى فارس مسارح وهل أعرف اللغة الفرنسية وهل أنا متزوج ؟ فأجبته على ذلك

ولما سمعوا منى أنى لم أتزوج زاد اهتمامهم بى ولم تكف الأم عن النظر إلى ، وأخذت كل فتاة تعدل من ثيابها

قالت لى الأم : إن كبرى بناتها كريمة القلب تحب الفقراء ، وأنها تحوك الجوارب بيدها وتخيط الثياب وتعلم الأطفال ، وأن الفتاة الوسطى تجيد الرقص والعزف على البيانو وتتقن الابطالية ، وإن الصغرى لا تزال فى المدرسة ولم « تخرج من البيضة » إلى الآن — كما يقول الأتراك — ولمحت تلميحاً خفيفاً إلى أن الفتيات سيصرن من أغنى السيدات فى يوم من الأيام لأن لهن عمات وخالات كثيرات

ولقد استكشفت من حديثها السبب فى حرص الانكليز على المجائز من نسائهن فانها لما تكلمت عن زوجها لم تدع صفة من الصفات الحسنة إلا ونسبتها إليه بحيث لو اجتمعت فيه كل هذه الصفات لكان من الملائكة لا من الناس ، ووصفته بأنه غنى كريم حسن الأخلاق يحب أبناءه وبناته . فقلت ماشاء الله وهو سمين أيضاً فما اسمه ؟

قالت : اسمه يا صاحب السعادة المستر « هوج » وهو من أسرة اسكوتلاندية عريقة

ولما كانت كلمة « هوج » فى اللغة الانكليزية تعني « الخنزير » فقد كتمت ابتسامى وقلت فى نفسى : « لو كان هذا الرجل فى فارس لكان اسمه « ميرزا خنزير » أو « خنزير خان » ولا بد أن يكون الخنزير محترماً جداً فى هذه البلاد حتى سموا أبناءهم باسمه وقلت لها : « وما اسمك أنت ؟ »

فقالت : « كلنا من أسرة هوج . وقالت إن اسم ابنتها الكبرى « مارى » واسم الوسطى « بيسى » واسم الصغرى : « جسى »

ولما بدأ الفتيات يتكلمن معي أمطرنني وابلاً من الأسئلة . وكان بين أسئلتهن هل اليهود مضطهدون فى فارس كما هم مضطهدون في روسيا ؟ وهل فى طهران تمثال للاسكندر المقدوني . ومثل ذلك من المفارقات . وقد فتنتنى الفتاة الوسطى بحديثها الحلو وصوتها الرخيم

ولما أرخى الستار وبدأ الناس ينصرفون قدم لى المستر هوج تلك القصاصة من الورق التى عليها

اسمه كما هى العادة عندهم وقال إنه سيزورنى ومعه أسرته فى اليوم التالى ...

لم يطل عهد ظنهم أنى أنا السفير لأن هؤلاء الانكليز يبحثون ويتساءلون . ولكن بحثهم لم ينقص من مكانتى بل زادها كما سيظهر فيما بعد فقد علموا أن لفهى ميرزا وحسبونى لذلك أميراً . وبدل أن ينادونى فى اليوم التالى بياصاحب السعادة ساروا يقولون لى يا سمو الأمير

وفى صباح اليوم التالى وقفت عربتهم على باب السفارة . ودعونى إلى تناول العشاء عندهم فى يوم بعيد من الشهر المقبل فقلت فى نفسى هؤلاء أول قوم من الانكليز أراهم يعتقدون بالتنجيم وإلا فلماذا يحددون هذا اليوم البعيد ؟

ولم أشأ أن أعرفهم بالسفير لأنه شديد الغيرة وقد كنت أعرف أنه من حق اختيار أصحابى . ولكنى لمعرفتى باخلاقه من جهة ، وحرصاً على ألا يرى المستر هوج وبناته خضوعى أمام رئيسى آثرت ألا أعرفهم به . والحق أن الانكليز يجهلون تمام الجهل هذا الخلق فينا ، فان أحدهم لا يتكلف فى الوقوف أو الكلام أمام وزير أو أمير ، ولكننا نحن الفارسيين نقف بشكل مزر أمام من هو أرقى منا ولا يستطيع الصغير ذو الكرامة أن يغير هذا الطبع لأن رؤساءه يتطلبونه وأقرانه لا يعذرونه

ومن العادات الغريبة عند الانكليز أن العروس هى التى تدفع المهر وأن مهرها فى العادة أضعاف ما يدفعه الرجل عندنا لعروسه . وقد أخبرتنى زوجة المستر هوج بأن مهر إحدى بناتها ثروة طائلة

قلت : لماذا لا أكون أول اصفهانى يتزوج من انجليزية ؟ إننى إن تزوجت فى إيران فلن أتزوج من غنية ، فالفارسيون يحرصون على التناسب بين أسرة الزوج وأسرة الزوجة خصوصاً بين الطبقات العالية . وفضلا عن ذلك فانى لو تزوجت من فارسية غنية فانى لا آخذ مثل هذا المهر الكبير . والفتاة مع ذلك جميلة وفوق الجميلة ، وأنا لا أزال فى ميعة الشباب فأنا كفء لها ، ولا تزال لحيتى سوداء كأول يوم سميت فيه لحية . وإذا ظهرت فيها شعرات بيضاء فالحناء موجودة ، وما ينقصنى إلا أن أتقن الكلام المعسول باللغة الانكليزية كما أتقنه باللغة الفارسية

الفصل الثالث والثلاثون

أسرة الخزير

سألت المترجم عن كل ما يلزمنى من آداب الدعوة للولائم حتى لا أقع فى مثل الغلطات التى طالما وقعت فيها منذ وصولى إلى انكلترا . وفى اليوم المحدد للدعوة ذهبت إلى ذلك المنزل وسألت البواب عن المستر هوج فأخبرنى بأنه ليس فى المنزل وبأن السيدات فى انتظارى ، فعددت ذلك من حسن الحظ لأن دخول الحرم فى إنكلترا بمثل هذه السهولة أمر لم يكن ليخطر لى ببال . وعدلت من ثيابى وأتقنت لبس القلبق وساويت شعرى ثم صعدت فوجدت الفتيات وأمهن ينتظرننى ، واعتذرت لى السيدة عن جهل البواب لأنه لم يعرف أنى ميرزا ثم قالت : « أليس لقب ميرزا عندكم هو لقب « برنس » عندنا ؟ لقد قرأنا ذلك فى رحلات المستر فوير »

قلت : إنه يخطئ حيناً ويصيب حيناً . فسألتنى الفتاة الصغرى : « أليس لقب ميرزا هو لقب الأمراء ؟ »

فقلت : إن دولتنا دولة كل رعاياها أمراء . فان كلمة ميرزا إذا كانت قبل الاسم كانت لقباً بسيطاً

وإذا كانت بعد الاسم كانت لقب الامارة

وعلى الرغم من هذا الايضاح فانهن أصررن على مناداتى بلقب « سموكم » ولا أعرف لماذا تشبثن بأنى أمير . وقد سألت صغراهن عن أبيها فقالت : إنه مسافر وسيعود فى المساء وإن من عاداته أن يفعل ذلك كل يوم . فقلت : يظهر أنه تاجر وهذه عادة التجار عندنا أيضاً ، ولكن هل المستر هوج يبيع لحم الخنزير ؟

عند ذلك بدا الغضب على وجه السيدة وقالت : ما الذى دعاك إلى أن تظن هذا الظن ؟

فقلت : إن التجار عندنا يلقبون بما يبيعونه فى بعض الأحيان . ثم تبينت شدة سخطها ، فحاولت إصلاح غلطتى وقلت : إن التجارة ليست عيباً عندنا فهل هى عيب عندكم ؟ إننى لاأعرف عادات البلاد ، وإنى أسير هنا بغيردليل ، وإذا لم يكن زوجك تاجراً فما هى صناعته ؟ »

قالت: إنه مدير شركة الهند الشرقية . فوجدت الفرصة مناسبة كل المناسبة لإصلاح غلطتى خصوصاً أمام الفتيات وقلت : لعله من ملوك الهند ؟ فابتسمت وقالت : « إننا لا نسمى مديرى هذه الشركة ملوكاً ولكنهم فى حكم الملوك

وسألتنى مارى : هل فى بلادكم مبشرون من الانكليز ؟ فحمدت الله على تغيير الموضوع الذى كنا نتكلم فيه وقلت : نعم لقد كنت أعرف فيها رجلاً يدعى بادرى وهو يقول : إن نبينا غير نبى ، وإن البابا رجل كذاب . وقد رجمه الفارسيون وأظنه فر من بلادنا »

فقالت : « لقد أساء الذين رجموه ! لماذا ؟ أليس هناك مجال للمناقشة ؟

قلت : « ليست المناقشة سهلة خصوصاً مع المسيحيين فى ايران ، فهم ليسوا مثل المسيحيين فى هذه البلاد بل هم أناس فى نهاية القذارة والشراسة ؛ وأفقر فقير من المسلمين فى ايران خير من أغنى غنى من المسيحيين فيها

ثم قلت : « إذا جاء الملك جورج إلى فارس وفتحها وألزم أهلها أن يكونوا مسيحيين فقد يصيرون كذلك . أما إذا جاء بادرى وجده وأرادأن يجعلهم مسيحيين فانهم يرجمونه . وليس يتم شىء فى فارس إلا بالسيف »

قالت : « لقد أرسلنا عدداً كبيراً من الأناجيل إلى فارس ولا بد أن يكون لها تأثير بين أهلها

فقلت : إن الأناجيل كتب طيبة ، والفارسيون لا يقولون كلمة واحدة ضدها ؛ ولكن القرآن الشريف أحسن منها ؛ والمسلمون يمدحون نبيكم فلماذا لا تمدحون نبينا أيضاً ؟ »

قالت مارى : « إننا سنجعلك مسيحياً قبل أن تفارقنا . هل زرت الكنيسة الانكليزية قبل الآن ؟

قلت : « إننى لم أزرها ولا أجرؤ على دخول معبد لأناس يخالفون دينى خشية أن أعامل معاملة سيئة ، لأنه لو دخل أحد المسيحيين فى مسجد من مساجد إيران لما خرج منه سليما . ولست أشك فى اننى أعامل هذه المعاملة لو دخلت الكنيسة فى بلاد الانكليز

فأكدت لى مارى بأن الكنائس مفتوحة الأبواب فى أوجه النصارى وغيرهم على حد سواء . وألحت على فى الذهاب معها إلى الكنيسة فى اليوم التالى فوافقت على ذلك

وعاملتنى الأم معاملة حسنة جداً فى ذلك اليوم

وفى الزيارات التى توالت بعد ذلك . وكانت بيسى التى طالما التقى نظرها بنظرى تقول لى باللغه الفارسية الفصحى : « خودا حافظ شوما » فأطرب لهذه التحية وترجمتها « أنت فى حفظ الله »

وأخبرتنى الأم بأن بناتها منذ قابلننى فى المسرح لم يفكرن فى شىء غيرى ، وان أكبر أمانى مارى الآن أن تجعلنى مسيحياً ، وأن بسى قد خطت خطوات فى اللغة الفارسية ، وان « جسى » أصبحت لا تعنى بشىء مثل عنايتها بالتاريخ الفارسى

وقد سرتنى هذه الأخبار كل السرور وشجعتنى على الأمل فى صحبتهن . وكنت كلما خرجت من عندهن أقول فى نفسى : « الله أكبر ! انهن لسن سيدات فقط ولكنهن يصلحن أن يكن وزراء . أم كيف يتأتى للمرأة فى بلادنا أن تفكر فى دينها وأديان البلاد الأخرى ؟ وكيف يتأتى لواحدة منهن أن تدرس لغة أو تاريخاً لأمة أجنبية ؟

الفصل الرابع والثلاثون

عجبى بابا فى الكنيسة

فى صباح اليوم التالى ذهبت إلى منزل صديقاتي ، وكان اليوم يوم جمعة الانكليز وهو يوم الأحد ، وكانت الأجراس تسمع فى كل مكان ؛ والشوارع مزدحمة بالذاهبين إلى الكنيسة على اختلاف درجاتهم وأعمارهم . وقالت مارى ونحن فى الطريق إن الحكومة هى التى تدير الكنائس فعجبت وقلت ان شاهنا وإن كان مستبداً فلا سيطرة له على المسجد ولا يستطيع أن يضطرنى إلى الزيادة من الاستغفار أو التقليل من قراءة الفاتحة ، وليس له أن يتدخل فيما بينى وبين ربى من غسل اليدين والرجلين ومسح رءوس الرأس والاستنشاق والمضمضة وقص الأظافر . فتلك كلها أمور دينية متروكة الضمير

وقبل أن ندخل الكنيسة مع مارى تعرفت على أختها الأكبر وقابلت أباها . ودخلنا الكنيسة جميعاً نساءنا والرجال . وما كان أشد الحاجة فى المعابد إلى وضع براقع على وجوه النساء لأنه يستحيل مع كثرة عددهن ألا تتجه إليهن العيون فى وقت الصلاة . ولقد كان من المحال علىّ أن تمر لحظة لا أزود فيها وجه بيسى بنظرة

وفى أثناء الطريق دفعت إلىّ مارى بكتاب أسود لأقرأ فيه الصلاة وقد فهمت منه أجزاء وفى أوامره ونواهيه ما يشبه الأوامر والنواهى التى فى القرآن ، ولكن النصارى لا يحفظونه عن ظهر قلب كما نحفظ نحن كتابنا المقدس بل يفتحونه ويقرأون فيه وهم يصلون ويحسبون صلاة مثل هذه يقبلها الله ...

وصعد المنبر شاب صغير ثيابه كثياب الناس جميعاً وهو حليق اللحية والشاربين فقلت فى نفسى كيف يتعظ الناس من قول أمرد كهذا؟ إن الخطيب عندنا يجب أن يكون أبيض الشعر محدودب الظهر ليصغى الناس إلى كلامه وليضعوا رأيه فى موضع الاحترام . وقد بطل عجبى عند ما رأيت هذا الخطيب الناشىء يفتح كتاباً ويقرأ لهم فيه حتى تنتهي خطبته وهو لا يهز رأسه يمنة ولا يسرة ولا يمسك سيفاً .

وقد ظهر لى فى جلاء أن المصلين وأمامهم هذا غير جادين و ليس فى صلاتهم شىء من الاهتمام . فقلت ليتهم يذهبون إلى فارس ليروا كيف يكون احترام الدين . فانهم هنا يجلسون على الكراسى الفاخرة على الوسائد الحريرية ويلتفت أحدهم فى أثناء الصلاة كما يشاء إلى اليمين أو اليسار أو الخلف ولا يعرف إن

ذلك يؤدى إلى الخروج من الصلاة . ونحن فى فارس نجلس كلنا على حصير واحد سواء منا الغنى والفقير ونولى وجوهنا وجهة واحدة ونخضع لله كما ينبغى أن يكون الخضوع له سبحانه ؛ وفى صلاتنا ركوع وسجود ، أما هؤلاء فصلاتهم جافة جافية كأنهم يعاملون الله معاملة الند للند . وهم لا يتوضأون قبل الصلاة ، ولكننى فهمت أن لهم قبلة كما لنا قبلة وان قبلتهم شطر بيت المقدس

وبعد أن أتم الخطيب تلاوة خطبته المكتوبة أنشد المصلون نشيداً كالذى ننشده نحن عقب صلاة العيد . ثم انفض الجمع وخرجنا ، وكنت شديد الاغتباط بخروجى سالماً لأنى لو كنت مسيحياً وحضرت مثل هذه الصلاة فى معبد إسلامى لحمدت الله على خروجى دون أن تتكسر عظامى . ولكن الأمر هنا على النقيض ، فالناس لم يروا فى وجودى بالكنيسة عند أداء الصلاة أقل مانع . ولو أن الدين لم تسبق لهم رؤيتى بثيابى الفارسية استغربوا هذا الشكل

ولم تدع زوجة المستر هوج وسيلة مباشرة أو غير مباشرة لإفهام الناس أنى أمير إلا فعلتها

ولما خرجنا من الكنيسة قالت لى :

« ما رأيك فى كنائسنا يا سمو الأمير ؟ »

فقلت : « لا بأس بها سوى أنكم لا تبذلون أقل عناية فى الصلاة »

قالت : « فما هو رأيك فى الواعظ ؟ »

فقلت : « هو جميل والنظر إليه يبعث السرور ، ولكنه لا يصلح للوعظ ؛ ولا يقبل وعظ ممن هو فى عمره ولو نصح الناس بحكمة سليمان وفقه الامام أبي موسى الأشعرى

وقد وافقنى المستر هوج على هذه اللاحظة وأخذ يتفلسف فى حكمة التجاريب ، وحاولت تغيير هذا الموضوع لأتكلم فى أى موضوع آخر تحبه بيسى ولكن (ماري) أو (الشيخ مارى) كما تستحق أن تلقب كانت تأبى أن يخرج الموضوع عن الدين

وقد سألتنى الأم عما إذا كنت أعرف السيدة فلانة أو غيرها من سيدات الطبقة الانكليزية الراقية ، وعما إذا كنت أدعى إلى حفلات الرقص فى بيوت السفراء والوزراء . وفهمت من أسئلتها أنها تريد أن تعرف وتشتهر فى تلك الأوساط وأن أكون الوسيط بينها وبينهم . وطلبت إلىّ أن أعرفها بالسفير فوعدتها بذلك على غير إرادتي وإن كنت أعرف أنه الوسيلة الأولى للتقدم نحو البيوت الراقية

الفصل الخامس الثلاثون

شركة الهند الشرقية

عدت إلى دار السفارة فوجدت السفير يتأهب لزيارة رسمية ليؤديها فى اليوم التالى . وهذه الزيارة فى قصر الشركة الهندية وهو واقع فى جزء بعيد عن المدينة ، وفى هذا القصر كل الأموال التى ادخرها أمراء الهند والصين وسرنديب فى عصور متعددة . وقد أمرنا السفير بأن نتأهب جميعاً لهذه الزيارة . واختار الهدايا اللازمة بهذه المناسبة ومن بين هذه الهدايا ديوان شعر نفيس من نظم جلالة مولانا الشاه

وقد كنا نعرف أن ملوك الهند السابقين هم حماة الشعر وأنصاره فلا بد أن يكون خلفاؤهم المحدثون على غرارهم . وكذلك جعل السفير من بين هداياه هذه صورة كبيرة مرصعة باللؤلؤ وهى من صنع محمد ناجى الشيرازى أكبر مصورى فارس فى

هذا العصر . وهذه الهدية ثمينة حقاً وهي أجل حتى من شعر الشاه

لبس السفير جبة عليها رسم الزهور بخيوط من الذهب وتقلد سيفاً مقبضه من العقيق وتمم محمد بك بشال من الكشمير وتمنطق بحزام أحمر ؛ وكذلك ظهر كل منا بأحسن مظهر . ثم ركبنا العربات إلى ذلك القصر العجيب الذي يكاد يكون كمدينة من مدننا وقد كان في حديقته شوارع تجري فيها العربات وهي مزدحمة بالناس مثل ازدحام مدينة لوندرا . وبين باب المدينة وباب البناء الداخلي صفوف من أعمدة المرمر لم تر عيني شبيهاً لها . وكان القصر مزداناً بمناسبة قدومنا . وفي الشوارع التي في الحديقة جنود مصطفة تصدح بموسيقاها .

استقبلنا في هذا القصر أناس بالنيابة عن الحكومة ودخلنا غرفة فيها أربعة وعشرون رجلاً على مقاعد مذهبة ، وقيل لنا أن هؤلاء هم أعضاء الشركة التي تحكم الهند ، ووجدنا مقعد رئيسهم أعلى من سائر المقاعد . وحياه السفير وقدم إليه الهدايا

وكانت أولى الهدايا ديوان شعر الشاه . فلما سلمه السفير التفتت كل العيون ، ولكن سرعان ما سمعنا الأعضاء يتهامسون : ليس هذا إلا كتاباً

وكنا ننتظر أن يضع الرئيس الكتاب على رأسه ويقبله ، كما نفعل نحن في مثل هذه الحالة . ولكنه أخذه في صمت ثم أحنى رأسه ثلاث مرات . وانتقل الكتاب من يد إلى يد حتى رأوه جميعاً

وقد امتعض السفير من ذلك وقلنا في أنفسنا بقران الشاه كان يعلم أن كتابه سيقابل هذه المقابلة لما ألف بيتاً واحداً من الشعر

ثم كانت الهدية الثانية هي صورة الشاه وقد رأى السفير أن الواجب يقضي بالسجود أمام هذه الصورة كما لو كان الشاه نفسه موجوداً فسجد وسجدنا جميعاً وكنا ننتظر أن يحذو أعضاء الشركة حذونا ولكنهم لم يتحركوا وأخذوا ينظرون إلينا نظرة استغراب

ولما تم تقديم الهدايا أخذنا بعض أعضاء الشركة إلى الغرف الأخرى ومنها مكتبة عامة فيها أحسن الكتب التي وضعت باللغة الهندية وتاريخ الهند باللغات المختلفة . وفي هذه المكتبة سيدات مختلفات ورجال وبينهم زوجة المستر هوج وبناته ؛ وقد أردت في بادئ الأمر أن أختفي وراء واحد من أصحابي حتى لا يرينني ولا يسلمن عليَّ فيستثرن غيرة السفير ضدي ، ولكني وجدت هذه الطريقة غير مجدية ، وجاءت الأم فصافحتني . ولحسن الحظ لم يرنا السفير عند ذلك ولكن سائر زملائي دهشوا

وقد طلبت إليَّ هذه السيدة أن أعرفها بالسفير الآن . فاعتذرت في كلمات مقتضبة بأن هذا لا يتفق مع عوائدنا فأظهرت الاقتناع وتركتني مؤقتاً

وكان يدير هذه المكتبة رجل هرم قالوا إنه عالم كبير . وقد فهمت أن الكتب التي فيها تقدر بمئات الآلاف من الجنيهات ، وفيها قسم للآثار به سيوف ودروع وثياب ونفائس مما جمعه الانكليز في حروبهم مع ملوك الهند القدماء ، وفيها سيف لقائد تركي بحري يقال له قبودان باشا . وقلت للمستر هوج : « ماشاء الله ! إذا كان شركتكم قد تغلبت على كل هذا الممدد من ملوك الهند فهي ليست شركة إذن ولكنها حكومة من أقوى الحكومات

وجدت بين الرجال شاباً ذا شارب قصير ينظر إلى حبيبتي بيسى نظرات تكاد تقضي على كل آمالي في الزواج منها والحصول على الثروة من مهرها ، وبدأت أشك في أن لحيتي على كثرة ما فيها من

الشعرات الطويلة وسوالفي الممتدة كالغدير أفضل لدى الفتاة من ذلك الشارب المقصوص

ورأيت فى حذائى ذلك الشاب مهمازين من النحاس ولكنه لا يرتدى ثوب ضابط عسكرى فأيقنت أن المهماز وسيلة لاستجلاب هواها

وطفنا بسائر الغرف والأقسام فى هذا البناء المتعدد الأجزاء . ولما آن أوان انصرافنا دنت منى بيسى وقالت لى : لا تنس أن تتعشى عندنا غداً يا سمو الأمير

فسمع السفير هذا اللقب وقال لى ونحن فى الطريق : كيف تدعوك تلك الفتاة أميراً ؟

قلت : « لا علم لى ولكن يظهر أن كلمة ميرزا لا تفهم عندهم إلا بمعنى الامارة

الفصل السادس والثلاثون

أخبار من فارس

لما وصلنا إلى دار السفارة اجتمعنا حول السفير كالعادة فى الديوان وأخذنا نتحدث عما رأيناه فقال لى : « ما الذى رأيته اليوم ياحاجى بابا ؟ إنها لشركة عجيبة حقاً فهى كرأيك فيها حكومة من أقوى الحكومات ، وأرى واجبنا يقضى بأن نكتب إلى الشاه عن كل ما علمناه من أمر تلك الحكومة

قلت : « على العين والرأس ياسعادة السفير ، ولكننى لست أكتمك أن رجلا واحداً من رجالنا أعقل من هؤلاء الأربعة والعشرين مجتمعين إن كانوا كلهم مثل ذلك الرجل السمين الذى تعرفت عليه من وقت قريب . فقال السفير : « ربما كان هذا الوصف منطبقاً على من عرفته أنت منهم ، أما الذين عرفتهم أنا فجديرون بالسيادة على العالم كله لا على الهند فقط ، وهم يعرفون عدد الشعرات فى لحية الشاه وإن كان كلانا لا يعرف هذا العدد . وألقوا علىّ من الأسئلة ماعجزت عن الإجابة عنه . ولست أعرف كيف حصلوا على كل مالديهم من المعلومات »

قلت : « أما الذين عرفتهم أنا فقد ألقوا علىّ من الأسئلة ما يخجل حمار الصحراء من إلقائه . وقد سألنى أحدهم : ألسنا نعبد البقر ؟ ولما استنكرت سؤاله سألنى : أليس الفارسيون هم الفرسيس فى الهند ؟ وقال لى رجل آخر : إن بطلنا الفارسى « تاماس كولى خان » كان رجلا إرلندياً وحقيقة اسمه « توماس كاليجان » وإنه هو المعروف فى التاريخ باسم « نادرشاه »

فقال السفير : « لقد يكون فيهم جهلاء ولكن أمين المكتبة الذى رأيته اليوم لا نظير له بين علماء فارس . وقد قرأ من الكتب مالم تحو مثله مكتبة الشاه . وأخبرنى المترجم بأنه يعرف عشر لغات أجنبية

وقال محمد بك : « ولكن علماء بلادنا أكثر اطلاعاً منه ومعرفة . فهذا الميرزا الانكليزى لا يعرف شيئاً على الاطلاق فى علوم الحديث والفقه والأصول والفلك ؛ ولم أسمع عن انكليزى واحد يستطيع استخراج الطالع من رصد النجوم

فنظر إليه السفير نظرة طويلة وقال : « ما الذى يهم هذا العالم من علوم الحديث والفقه والأصول ما دام كافراً ؟ لكنه يعرف مقابل تلك العلوم مايتعلق بدينه . وهل من علماء إيران رجل واحد يستطيع أن يتكلم بعشر لغات أجنبية ؟ »

قال محمد بك : « وهل عرفت ياسعادة السفير انكليزياً واحداً يحفظ أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام ويميز بين الصحيح منها والضعيف مثل الحاج محمد مجتهد مدينة قم ؟ »

فاحتد السفير وقال : « ألم أقل لك أيها الأحمق إن الانكليز مسيحيون وإن لهم ديناً غير ديننا يعرفون أحاديثه وأسانيده ؟

فهز محمد بك كتفيه واستمر السفير يقول : « هل علمت أن المجتهدين فى فارس يخرجون من بلادهم ليقنعوا أبناء الديانات الأخرى باعتناق الدين الاسلامي كما يفعل المبشرون الانكليز الذين يطبعون كتبهم ويوزعونها على الناس بغير مقابل ويحرصون على تلقين الناس إياها ؟ هل تعلم أن الانكليز ترجموا القرآن إلى لغتهم وعرفوا من علوم المجتهدين ما ليس يعرفه المجتهدون أنفسهم ؟ »

فتدخلت فى الحديث وقلت : على كل حال فهذه أمة نالت مكانة مدهشة من الثروة والقوة والمعرفة

فضحك السفير وقال : « هل تعني حكومة الانكليز أم حكومة شركة الهند الشرقية ؟ » فقلت « أقسم برأسك يا سعادة السفير أن شركة الهند تدعو إلى الحيرة أكثر مما تدعو إليها الحكومة الانكليزية نفسها »

قال السفير : « نعم لقد صدقت يا حاجى بابا فانى لا أعرف كيف تمكن الأربعة والعشرون انكليزياً من إخضاع الهند الواسعة ! ولا أعرف كيف صارت مدينة أجرا أو مدينة دلهى العظيمتان خاضعتين للبناء الذى كنا فيه اليوم . ولست أعرف كيف زال ملك المغول أمام بناء الشركة فى شارع « ليدن هول ستريت »

فقلت : « هذا مدهش حقاً يا سعادة السفير وأرى أن نكتب للشاه أن يأمر بتحصين البلاد وتقوية الحدود لأنه من يدرى ربما قامت شركة أخرى بفتح فارس كما فتحوا الهند بواسطة شركة تجارية !

ولم أكد أتم جملتى حتى جاء رسول من قبل وزارة الخارجية يحمل إلينا خطابات من قبل الشاه الفارسى ، فتسلم سفيرنا الرسائل وسكتنا منتظرين اطلاعنا على ما فيها

ولما فتح السفير إحدى الرسائل صاح : « الحمد لله ! الحمدلله ! لقد مات عدونا اللدود « ميرزا شافى » رئيس الوزارة الفارسية »

ثم قام السفير إلى ركن من الغرفة وسجد لله سجدتى الشكر

واضطررت مراعاة له أن أقول : الحمدلله ! الحمد لله ! مع أنى كنت فى حاجة للبكاء فى تلك الساعة لأنى كنت مستظلاً بحمايته ، ولأن معاملة السفير لى ستتغير طبعاً بعد الآن

ولما فرغ السفير من صلاته أطلق لنفسه العنان فى إظهار الفرح وظل طول اليوم لا يفكر فى أمر آخر وهو بين لحظة ولحظة يقول : لقد مات ميرزا شافى !

وكنت أفكر فى مستقبلى بعد تلك النكبة فأتحسر . ولقد دلت التجربة على أن معاملة السفير لى تغيرت تغيراً كلياً بعد وفاة رئيس الوزارة . فقد كان من قبل يعاملنى بشىء من الاحترام . أما الآن فانه يهزأ بى . ولقد قال لى مرة : « إن أباك قد مات . لقد مات هذا الكلب القذر ! ولكن لحسن حظك كنت موجوداً معنا فى هذا الحين . فان الشاه صادر أملاكه وباع عبيده وجواريه ؛ ولو كنت هناك لباعك أيضاً » فقلت له « أرجو ألا يحرمنى الله نعمة رضاك »

قال لى : « إذهب وكن مطمئناً فقد عفونا عن الماضى ولسنا نحمل لحانا ذات لونين »

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى ٧